

حجاجية التشبيه في القرآن الكريم من خلال كتب التراث، دراسة تحليلية لنماذج من سورة البقرة
The Argumentative Function of Simile in the Holy Qur'an: An Analysis of Classical
Heritage Interpretations through Surat Al-Baqarah"

بلكيف محمد¹، أ.د فراحي علي²

¹ جامعة بن يوسف بن خدة- الجزائر 01 (الجزائر)

m.belkif@univ-alger.dz

² جامعة بن يوسف بن خدة- الجزائر 01 (الجزائر)

Feradjiali7@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/01/28 تاريخ القبول: 2026/04/12 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

لقد عني علماء التفسير بدراسة كل ما له تعلق بألفاظ القرآن الكريم من الناحية اللغوية: المعجمية أو النحوية أو الصرفية أو البلاغية، وكان أكثر اعتنائهم في هذا الباب محاولة الوقوف على الخصائص البيانية للقرآن الكريم، ومحاولة الوقوف على معانيها وأغراضها، وكان التشبيه في مقدمة هذه الصور البيانية ولذا فقد كثر فيه البحث والتحليل، ووقفوا على كل خباياه وأسراره، واستخلصوا منه مظاهر البلاغة ودلائل الإعجاز، ولم يتوقف بحثهم في هذا الباب على الوظيفة الجمالية والنظرة الابداعية، بل تعدى ذلك إلى البحث عن الأهداف والغايات التي من أجلها أكثر الله عز وجل من توظيف التشبيه، فقادهم ذلك إلى التفتن لقضية الاحتجاج والاستدلال بالتشبيه وتوظيفه كآلية حجاجية لغرض الإقناع والمحاجة، فركز كثير من علماء التفسير مثل الزمخشري والرازي والبيضاوي والطاهر بن عاشور على هذه الجزئية.

ونحن نحاول في هذا البحث إلقاء نظرة سريعة على آرائهم، ومن ثم تحليلها وتفسيرها، وتكييفها مع نظرية الحجاج المعاصرة، مركزين على النقاط التالية:

_ حجاجية التشبيه عند علماء البلاغة المتقدمين: وهو مبحث أردنا من خلاله إثبات كون التشبيه آلية من آليات الحجاج عند علماء البلاغة المتقدمين.

_ حجاجية الصورة البيانية عند علماء اللسانيات المعاصرين: وهذا بالبحث في أقوال المختصين في نظرية الحجاج والتداولية بصفة عامة

_ نماذج من سورة البقرة للاحتجاج بالتشبيه: وقد دعمنا هذا المبحث بكلام بعض المفسرين ممن عونا في تفاسيرهم بالجانب البلاغي.

وبعد بحث وتنقيب في كتب التفسير وجدنا أن المفسرين قد تفتنوا لهذه الخاصية في التشبيه وركزوا عليها تركيزا كبيرا.

الكلمات المفتاحية: حجاج، إقناع، تشبيه، بلاغة، تمثيل، تفسير.

Abstract

Qur'anic exegetes have devoted considerable attention to studying all linguistic aspects of the Qur'an—lexical, grammatical, morphological, and rhetorical. Their primary concern in this field has been to identify the distinctive rhetorical features of the Qur'an and to explore their meanings and purposes. Among these rhetorical devices, *simile* occupies a prominent position, which is why it has received extensive scholarly discussion and analysis. Exegetes have examined its subtleties and intricacies, deriving from it manifestations of eloquence and indicators of divine inimitability (*i'jāz*).

Their inquiry, however, was not limited to aesthetic or stylistic considerations; it extended to investigating the objectives and purposes for which God—Exalted be He—employed simile so frequently. This led them to recognize its argumentative and evidential functions and to view it as a persuasive rhetorical mechanism intended for reasoning and conviction. Many exegetes, such as al-Zamakhsharī, al-Rāzī, al-Bayḍāwī, and Ṭāhir ibn 'Āshūr, focused specifically on this dimension.

This study seeks to provide a concise overview of their perspectives, followed by an analysis and interpretation within the framework of contemporary argumentation theory, focusing on the following points:

- The argumentative function of simile in classical Arabic rhetoric: demonstrating that simile was regarded as one of the mechanisms of argumentation by early rhetoricians.
- The argumentative role of figurative imagery in modern linguistic theories: through an examination of the views of specialists in argumentation and pragmatics.
- Examples from Sūrat al-Baqarah illustrating argumentative uses of simile: supported by the insights of exegetes who emphasized rhetorical aspects in their commentaries.

A close review of exegetical works reveals that many commentators were fully aware of this argumentative dimension of simile and gave it significant attention in their interpretations.

Keywords: argumentation, persuasion, simile, rhetoric, representation, exegesis.

*المؤلف المرسل: محمد بلكيف

1. مقدمة

الإقناع هو غاية كل خطاب حسب نظرية الحجاج الحديثة المنبثقة عن التداولية، وبما أن القرآن الكريم خطاب يهدف إلى الإقناع وتصحيح الأفكار والمعتقدات، فهو خطاب حجاجي بالدرجة الأولى، ولا غرو في أنه يستعمل كل الأساليب اللغوية في الحجاج والجدال، بما في ذلك تلك الأساليب التي توصف بأنها ذات طابع جمالي وهي التي تسمى (بيانية)، ولعل أكثر الأساليب البيانية استعمالاً في القرآن الكريم، بل في كلام العرب عامة هو التشبيه، كما قال المبرد: «لوقال قائل هو أكثر كلام العرب لم يبعد» (السيوطي جلال الدين ج 3 ص 142) فهل يصح اعتبار التشبيه آلية من آليات الحجاج في القرآن الكريم؟ وكيف تم توظيفه لذلك؟

يعد التشبيه أحد أبرز أنواع البيان وأكثرها استعمالاً في القرآن الكريم، وقد تعددت وظائفه وأهداف استعماله، من جمالية تصويرية إلى حجاجية، وسنركز هنا على الجانب الحجاجي، وسنحاول تجاوز كل ما يتعلق بجزئيات التشبيه من تعريف لغوي واصطلاحي، فضلاً عن أنواعه وتقسيماته المتعددة والتي ذكرت في كتب البلاغة، وسنحاول التركيز على ماهية الموضوع، ألا وهو الجانب الحجاجي للتشبيه في القرآن الكريم معتمدين على مقارنة تراثية تداولية مستعينين بالتمثيل.

وقد جاء بحثنا هذا مرتباً على مقدمة نبين فيها أهمية التشبيه في كلام العرب، ثم انتقلنا إلى حل إشكالية استحالة وجود علاقة بين الخيال والحجاج، ثم حاولنا إثبات حجاجية التشبيه عند علماء البلاغة المتقدمين، ثم انتقلنا إلى إثبات حجاجية الصورة البيانية عند علماء اللسانيات المعاصرين، وبعد هذا انتقلنا إلى الجانب التطبيقي والذي أخذنا فيه نماذج تطبيقية على سورة البقرة، هذا وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع قد تمّ إثباتها في آخر البحث.

2. بين الحجاج والخيال:

قد يتبادر إلى الذهن من الوهلة أنه يستحيل تصور علاقة بين الحجاج والخيال الذي يتمثل عند العرب في ألوان الصور البيانية الكثيرة، لما يُتوهم من وجود تناقض بينهما، والذي يتأمل في لغة العرب وسننها في الكلام، وتفننها في أساليب الخطاب يدرك أنه لا مانع من اجتماع الحجاج والخيال في سياق واحد من سياقات اللغة العربية، وربما يكون هذا كثيراً مشهوراً في كلامهم، وقد يظهر جلياً في كتاب الله عز وجل، باعتبار أن القرآن الكريم نزل على سنن العرب في كلامها، قال الإمام الزركشي: «اعلم أنّ القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة وما من برهانٍ ودلالةٍ وتقسيمٍ وتحديدٍ شيءٍ من كليات المعلومات العقلية والسَّمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به لكن أوردته تعالى على عادة العرب» (الزركشي بَدْر الدِّين ج 2 ص 24)

وإذا تأملنا قول الزركشي: (على عادة العرب) أي على سننها في الكلام، وطريقتها في الخطاب، لهذا فإننا نلتمس أن يكون التشبيه أحد هذه البراهين، باعتباره أحد أساليب العرب، وهذا ما يشمل كلام الزركشي في قوله: «لكن أوردته تعالى على عادة العرب» ... أي في كلامها.

وقد ترد على فرضيتنا هذه مجموعة من الاعتراضات، وهي اعتراضات متوقعة، قد تخطر ببال كل إنسان، ومن الاعتراضات الواردة في هذا المبحث الإشكالية التي تقول: كيف يكون التشبيه _ أو غيره من ألوان البيان _ أداة من أدوات الاقناع أو آلة من آلات الحجاج؟

بينما نحن مدركون تماماً أنها قائمة على الخيال، والخيال غير المنطق، بل الخيال مناف للحجاج الذي يعتمد العقل والمنطق.

فنقول _ مجيبين على هذا الاعتراض _: لقد أثبت كثير من العلماء وجود علاقة وطيدة بين الخيال والحجاج وذلك من جهة أن الكلام عامة _ سواء كان تخيلاً أم منطقاً _ إنما ينطلق أساساً من إرادة الاقناع، وهو الغاية الأولى التي من أجلها نزل القرآن الكريم، أعني بذلك الهداية والإرشاد، ولا شك أن ذلك يعتمد أساساً على الاقناع والحجة والبرهان.

وقد استعمل القرآن الكريم لذلك ألواناً كثيرة من الأساليب منها ما يرجع إلى المعجم ومنها ما يرجع إلى التراكيب ومنها ما يرجع إلى الخيال والصورة، وقد تفتن كثير من علماء التفسير إلى هذه القضية فنبهوا عليها وخصصوا لها مباحث في تفاسيرهم، وقد حاز التشبيه على أكبر حصة من ذلك لأهميته في الاقناع والحجاج.

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري في الكشف، عد تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة 17) ﴿البقرة 17

قائلا: «لما جاء بحقيقة صفتهم عقبا بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميم للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر - شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبى، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾» (الزمخشري ج 1 ص 72)

عندما نتأمل هذه العبارة نتأكد حقيقة أن التمثيل والذي يعتبر التشبيه - على اختلاف ألوانه - أحد أنواعه من أهم الأدوات التي استعملت في القرآن الكريم للإقناع والحجاج.

ولعل الزمخشري أثر بهذا الكلام على بعض علماء الكلام فحاولوا اقتباسه أو النسج على منواله، ونقصد هنا الامام الرازي صاحب التفسير الكبير المعروف "بمفاتيح الغيب" حين صاغه بطريقة أقرب إلى علم الكلام والمنطق موضحا أهمية التشبيه في الإقناع والاحتجاج، وإليك هذه العبارة التي توضح ذلك وتبينه خير بيان: «اعلم أنا قبل الخوض في تفسير ألفاظ هذه الآية نتكلم في شيئين أحدهما أن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور؟، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة؟ وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً؟ ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾» (الرازي، ج 1 ص 66)

غير أن البيضاوي استل كلام الزمخشري استلالاً وأخذه أخذاً حتى كأنه أعاده بلفظه مؤكداً على الفكرة ومدعماً لها، حيث يقول في تفسيره: «لما جاء بحقيقة حالهم عقبا بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير فإنه أوقع في القلب وأقنع للخصم الألد لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال وفشت في كلام الأنبياء والحكماء...» (البيضاوي ج 1 ص 49)

وهنا أدعو القارئ إلى التأمل في هذه العبارة مؤكداً على عبارة "أوقع في القلب وأقنع للخصم الألد ..." وهي عبارة تحمل شحنة حجاجية كبيرة، خاصة عند استعماله اسم التفضيل الذي يدل على النهاية في الإقناع وتبكيته الخصم، ودحض كل شبهه ورد كل ادعاءاته.

وقد كرر جمع من المفسرين هذا الكلام بلفظه أحيانا وبمعناه أحيين أخرى، منهم النسفي وأبو حيان وغيرهما.

وخلاصة القول: إن نظرة المفسرين القدامى إلى التشبيه لم تكن نظرة منحصرة في الجانب الجمالي الفني أو براعة التصوير، بل تعدت ذلك إلى البعد الحجاجي الذي التمسوه في التشبيه، حيث اتفقت أقوالهم في اعتبار هذا اللون البياني واحداً من أقوى أدوات الإقناع والحجاج والجدال في القرآن الكريم.

3- حجاجية التشبيه عند علماء البلاغة المتقدمين:

إذا كان هذا موقف المفسرين من التشبيه، وهو موقف مدعم لفرضيتنا، فكيف كان موقف علماء البلاغة من هذه القضية؟

لا شك أن هذا الموضوع مما يهم البلاغيين، ولا نتصور أن تخلو كتب البلاغة القديمة من معالجة مثل هذه الموضوعات، فهم كانوا أبصر بمواقع الكلام وأغراضه،

ولبيان ذلك نتوجه إلى أهل البلاغة لنتبين ما يقولون في المسألة، ولعلنا نبدأ بما ذكره حازم القرطاجني في كتابه المشهور (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) حيث بين أن المتصرف في هذه المعاني - يقصد بها ألوان البيان - لا يخلو من أن يكون مثبتا لشيء ببعض تلك الاعتبارات أو مبطلا أو مسويا بين شيئين أو مباينا بينهما أو مرجحا أو مشككا، ولا يخلو من أن يكون معمما أو خاصا حاصرا أو غير حاصر آخذا للشيء بجملة أو محاشيا بعضه. وللعبارة عن جميع ذلك أدوات وضعت للاختصار. وقد يعبر عن جميع ذلك بغير تلك الأدوات. فهذه وأشباهها من المعاني، التي تدل على مقاصد المتكلم واعتقاداته وأحكامه في التصورات والتصديقات المتعلقة بغرضه، معان ثوان ينوطها بمعاني كلامه لتبين فيها أحكاما وشروطا. (القرطاجني، ص 13)

إن المتأمل في كلام حازم السالف الذكر يفهم منه أن كلام البلغاء من الخطباء والشعراء الذين أشار إليهم سالفنا (القرطاجني ص 11 وما بعدها) إنما يقصد منه ابتداء إثبات شيء أو نفيه، ولا شك أننا نلاحظ بوضوح وجود مصطلحات منطقية مثل: أحكام ... التصديقات ... والتصورات ...، تم حشدها هنا عند الكلام عن ألوان البيان، مما يوحي بوجود علاقة بين هذه الضروب من الكلام الإبداعي وبين الجانب العقلي المنطقي، كما بين في هذه الفقرة أهمية النظر إلى مقاصد المتكلم، التي تهدف دوما إلى إصدار حكم ما، وهذا الحكم إما أن يكون إثباتا لقضية وإما أن يكون نفيا لها، وهو بالضرورة يستلزم وجود حجاج وجدال ظاهر أو مضمهر في كلام البلغاء والفصحاء ... وهذا هو الحجاج بعينه .

وأما في ما يخص التشبيه على وجه الخصوص فإن الكلام عليه كان أكثر وضوحا، وربما تنبه إليه كثير من العلماء قبل حازم بقرون، وأثبتوا من خلال معالجتهم لهذه القضية مدى اعتبار التشبيه آلية من آليات البيان والايضاح لما يمكن أن يكتنفه بعض الغموض، كما تعتبر آلية من آليات الاستدلال لمن أراد الاحتجاج والاقناع، وفي هذا المضممار يقول المبرد: «والأمثال أصل كبير في بيان الأشياء؛ لأن الشيء يعرف بشبهه ونظيره، والأمثال تخرج ما يخفى تصوره إلى ما يظهر تصوره، والمثل بيان ظاهر على أن الثاني مثل الأول ، وقد ذكر الله تعالى الأمثال في غير موضع من كتابه لما فيها من حسن البيان وقرب الاستدلال، والمقصود بالمثل البيان عن الحال الممثل، وحقيقته ما جعل من القول كالعلم للتشبيه بحال الأول» (الواحدي، ج 1 ص 322)

وكلام المبرد هنا واضح الدلالة في كون التشبيه يستعمل في البيان والايضاح والاستدلال، والاستدلال هو أهم ضروب الحجاج عند اللغويين.

والإشارة إلى نايقا البغدادي في كتابه " الجمان في تشبيهات القرآن" حيث أشار في ثنايا هذا الكتاب وأثناء تحليله للتشبيه الواقع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) البقرة: 74 إلى حجية التشبيه، ورد على من زعم أن الغرض من التشبيه في الآية هو محض التشبيه، دون النظر إلى البعد الحجاجي له، مبينا أن النظرة الكاملة لهذا التشبيه تبين لصاحبها أن الغرض هنا هو الاتيان بالحجة والتعليل، قائلا: «فأما من قصد محض التشبيه في هذا الباب، واعتمد في أخذه على لفظ الكتاب، فإنه وقف دون

استيفاء المعنى بمثل قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ وما يتبع هذا القول من الدلالة عليه، والحجة فيه والتعليل له» (ابن نايقا البغدادي، ص 50)

وقد كرر ذلك في مواضع كثيرة، منها ما ورد في تعليقه على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (29) الأعراف 29

قال: «فوجه التشبيه في إخراج الأموات بإخراج النبات أن المنزلة فيهما سواء، فالقادر على أحدهما قادر على الآخر، واحتج تعالى بذلك على من أنكر حال البعث كما احتج بابتداء الخلق، فقال جل اسمه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾» (ابن نايقا البغدادي ص 82)

فقد استعمل الله عز وجل التشبيه في هذه الآية للدلالة على صحة البعث والنشور، فدعا المنكر للبعث إلى التأمل في قضية بدء الخلق، وأن إعادته لا تعتبر أغرب من بدئه أول مرة، فمن بدأ الخلق أول مرة فلا شك ضرورة أنه قادر على إعادة بعثه من جديد، وقد استعمل هنا حرف التشبيه الكاف لبيان ذلك، ويظهر لنا من خلال كلام المصنف كيف جعل الدلالة والحجة والتعليل من أهم أغراض التشبيه هنا، بل جعل النظر إلى التشبيه كتركيب مجرد نظرة سطحية.

وندعم هذا الرأي بما ذكره الدسوقي في حاشيته على مختصر المعاني للسعد التفتراني حيث يقول في الغرض من التشبيه شارحاً بيت المتنبي :

وإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ما نصه: « (قوله: فإن المسك ... إلخ) ليس جواباً للشرط الذي هو قوله: فإن تفق الأنام؛ لعدم الارتباط المعنوي، وإنما هو علة للجواب أقيم مقامه والأصل فلا بعد في ذلك؛ ... فالشاعر لما ادّعى أن الممدوح فاق الناس فوقانا صار به كأنه جنس آخر وأصل مستقلّ برأسه، وكان فوقانه لهم على الوجه المذكور مما يمكن أن يدعى استحالته احتجّ لمدعاه بأن حالته مماثلة لحالة مسلمة الإمكان لوقوعها، فشبه حالته بتلك الحالة فتبين أن حالته ممكنة» (الدسوقي، ج 3 ص 153)

إن عبارة الدسوقي في هذا التعليق تدل على نظرة عميقة وتحليل دقيق للغرض من التشبيه هنا، إذ هو لم يقف هنا على مجرد الإشارة إلى جمالية هذا البيت، بل تعدى ذلك إلى رؤية غائية، تنظر إلى ما وراء اللفظ لتحاول الغوص في مقصدية المتكلم وهدفه من الاستعانة بالتشبيه هنا، والحق أن كلام الدسوقي _ في نظرنا _ يمكن عده حالة استباقية في تحليل الصورة البيانية وتحويلها من صورة جمالية شاعرية إلى أداة من أدوات الحجاج والاستدلال.

4- حجاجية الصورة البيانية عند علماء اللغة المعاصرين :

في حقيقة الأمر لسنا أول من ادعى أن الصورة البيانية بصورة عامة تستعمل كألية من آليات الحجاج، بل قد سبقنا إلى هذا كثير من الدارسين، وهم من المختصين في مجال البلاغة وتحليل الخطاب، ونذكر هنا ممن تعرض إلى هذه اللطيفة من العلماء المعاصرين اللساني المغربي محمد العمري في تحليله لقصة حي بن يقظان مركزاً على أن الاستعارة لعبت دوراً مهماً في الجانب الحجاجي في قصة حي بن يقظان، معتبراً أن الاستعارة جرت على مستويات ثلاث هي: استعارة الإطار واستعارة الرؤية واستعارة الإيضاح. (محمد العمري ص 14)

وهذا كله لبناء نسق حجاجي متين يهدف إلى إثبات وجهة نظر معينة لدى كاتبها من قضية كانت شائكة آنذاك، وهي قضية عقدية كلامية تبنتها الكثير من الفرق الإسلامية تتمثل في قضية المعرفة، أو بالأحرى كما ذكر العمري: للجواب عن سؤاليين يتعلقان بمصدر المعرفة ومدى أهمية العقل.

وهذا الذي عمل عليه محمد العمري من خلال مقاله: تداخل الحجاج والتخييل، والذي بين من خلاله حجاجية الاستعارة، ونحن هنا نحاول تطبيق ذلك على التشبيه في القرآن الكريم. وقد أفاض العمري في شرح ما للاستعارة من دور مهم في الحجاج القائم في رواية حي بن يقظان معتبرا إياها الأداة الأهم في هذا المضممار .

كما تجدر الإشارة إلى أن الأستاذ علي بعداش، وهو أستاذ بجامعة المسيلة قد نشر مقالا بعنوان: الأبعاد الحجاجية للصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، وقد أردنا أن نحذو حذوه في هذا العمل ولكن باختلاف ميدان التطبيق.

وإذا تبين هذا، تبين أيضا أن كل ألوان البيان القائمة على التخييل يمكن أن تكون أداة من أدوات الحجاج في أي خطاب كان بما في ذلك القرآن الكريم.

وإذا كانت الاستعارة أداة من أدوات الحجاج وهي أبعد في التخييل وأعمق في المجاز، كان التشبيه أولى بهذا. كما نجد عبد الله صولة في كتابه "الحجاج في القرآن الكريم" قد ركز على هذه القضية، مستلا كلامه من كلام الهادي حمو ومحمد أبو زهرة اللذين بينا الوجوه الأسلوبية ذات البعد الحجاجي في القرآن الكريم منبهين إلى أن التشبيه وضرب الأمثال هو أحد هذه الأوجه. (عبد الله صولة، 2007 ص 57)

على أن عبد الله صولة قد أفاض في الباب الأخير من كتابه هذا في الكلام على حجاجية الصورة البيانية، أيًا كانت هذه الصورة بين استعارة وتمثيل وتشبيه وكناية ومجاز...

ولكننا نلاحظ وبوضوح تام أن عبد الله صولة لم يقسم كتابه هذا على حسب الصورة البيانية التقليدية بل أتى بتقسيمات جديدة كان منبعها الواقع، فقد قسم مثلا: باب الزراعة والنبات ثم باب الحيوان ثم باب التجارة والأموال.

وهذا التقسيم في الحقيقة لا يوقفنا على جزئيات الصورة ولا يستوعب كل مفردات الصور، ولذلك نرى أنه فتح المجال للباحثين في هذا الباب، وترك المجال أمامهم واسعا لتتبع مفردات هذه الصور من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ومجاز...، على أنه يجب الاعتراف أنه لا يمكن لأي كان أن ينكر ما لعبد الله صولة من فضل في بيان حجاجية الصورة البيانية في القرآن الكريم، ورغم أنه لم يفرد التشبيه بمبحث خاص إلا أنه أشار إليه في الباب الأخير، بل وذكر له أمثلة وحاول تحليلها ببيان بعدها الحجاجي، وقد تكون عبارته التالية أوضح ما يمكن اعتماده في بيان حجاجية التشبيه إذ يقول _ بعد عرض مجموعة من الأمثلة القرآنية _ : « إن معظم هذه التمثيلات وإن جاءت على صيغة في النظم عربية فصيحة، ولا عجب فالقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين، فإن الغاية من سوقها في القرآن الكريم الإقناع بواسطة مادتها والشكل التمثيلي الذي صيغت فيه المادة، على نحو تسقط معه على صعيد الصورة القرآنية في علاقتها بمتلقيها ثنائية فن/ فكر » (عبد الله صولة 2007 ص 574 _ 575)

ولنركز في هذه الفقرة على عبارة الإقناع بواسطة مادتها ... فهي كفيلة باعتبار أن التشبيه يعد واحدا من أهم أدوات الحجاج وآلياته، كما حاول تقرير هذا المعنى باستحداث مصطلح جديد سماه: ثنائية فنذكر.

وليس عبد الله صولة الوحيد الذي اعتبر الصورة البيانية أداة من أدوات الحجاج، بل شاطره الرأي كثير من العلماء قبله وبعده.

وإذا جمعنا هذه الأقوال والنصوص الكثيرة لعلماء التفسير وعلماء البلاغة وحتى علماء اللغة المعاصرين أمكننا أن نتبنى حجاجية التشبيه بما يشبه الإجماع.

5-حجاجية التشبيه في القرآن الكريم، نماذج من سورة البقرة:

عند قراءتنا لسورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن الكريم نلاحظ وجود ذلك الكم الهائل من التشبيهات الموظفة لأغراض بلاغية متعددة، وسنركز في هذا المبحث على بيان الجانب الحجاجي لبعضها مستعينين بما قاله المفسرون القدماء وعلماء المعاني.

أولاً: قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: 17)، يمثل الله عز وجل في هذه الآية المنافقين الذين يريدون خداع الله عز وجل بالساري الذي يستوقد النار يستضيء بها، فإذا بها تنطفئ ويبقى متحسراً في ذلك الظلام الدامس، وفي هذه الآية تنفير من المخادعة والنفاق الذي سبق ذكره في الآيات السالفة، ولتأكيد هذا المعنى فقد استعمل القرآن الكريم هذا التشبيه، ولمزيد من البيان نذكر أقوال بعض المفسرين الذين وقفوا عند هذا المعنى وركزوا عليه.

وقد سبق في الفصل النظري ذكر كلام الزمخشري حول هذه الآية، والذي يبين فيه صراحة الغرض الأساس من ضرب الأمثال وعقد التشبيهات الواردة في القرآن الكريم وذلك الكلام مستل من تفسيره لهذه الآية، ودون إعادة ذكره كاملاً، فإنه يدل على كون التشبيه في هذه الآية قد استعمل لفك الغموض وإيضاح المهم، وبيان ما يمكن أن يخفى على الأذهان، وإضافة إلى هذا فقد استوقفتني عبارة رائعة للزمخشري أحببت أن أعيدها هنا مع شيء من التعليق، حيث قال: «... وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبي» (الزمخشري ج 1 ص 72)

إن مجرد قراءة هذه العبارة كافية لإدراك الهدف والغاية من إيراد التشبيهات في القرآن الكريم، ولا أقول كل التشبيهات ولكن معظمها، فكلام الزمخشري هنا فيه دلالة صارخة على اعتبار التشبيه في هذه الآية وجهاً من وجوه الحجاج بل اعتبره من وسائل تبكيت الخصم الألد أي الشديد الخصومة مما يوحي بقوة الحجة ووضوحها، وغير بعيد عن هذا المعنى ما سبق ذكره من كلام البيضاوي والنسفي وأبي حيان في تفسيرهم لهذه الآية فلا داعي للتكرار. وفي هذا السياق يبيّن ابن بدران في تفسيره الموسوم بـ "جواهر الأفكار" عند تفسيره لهذه الآية أن ضرب الأمثال في الكلام نوع عال من أنواع البلاغة، وكلما كان المثل مطابقاً لمقتضى الحال، ارتقى الكلام رتبة في درجات البلاغة، مبيناً أن الأمثال تؤثر في القلوب، ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، لما فيها من تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، ثم ضرب مثلاً لذلك بهذه الآية حيث يقول: « ألا ترى أن الإيمان، إذا مُثِّلَ بالنور، يتأكد وقوعه في القلب، تأكيداً لا يكون كذلك إذا ذكر مجرداً بدون تشبيه؟ وأن الكفر إذا ذكر مجرداً عن التمثيل لم ينفر القلب منه، مثل نفرتة عنه إذا شبه بالظلمة؟ ولا تتأكد النفرة مثل تأكدها إذا مثل بها؟ ولهذا مثل تعالى حالة المنافقين في تحيرهم وتلاعيمهم، وما هم عليه من الأحوال العجيبة الشأن بحالة الذي استوقد ناراً» (ابن بدران، الطبعة الأولى ج 1 ص 82)

ولنتأمل في قوله: لأن الأمثال تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه... فهي عبارة نفيسة في هذا الباب، وذلك لأن المقصود من الحجاج هو التأثير على القارئ أو السامع، وأن هذا التأثير على القارئ لم يكن لو لم يوجد في هذه العبارة تشبيه، وكذلك النفور من الكفر والنفاق فإنه يتأكد أكثر عندما استعمل له التشبيه وشبه بمن استوقد ناراً لكنها لم تضئ له شيئاً، فكانت هذه العبارة دالة دلالة قوية وواضحة على أن التشبيه هنا له بعد حجاجي قوي جداً.

أما أبو حيان فقد تعددت عباراته في هذا المعنى في تفسير هذه الآية، حيث ذكر كلام الزمخشري السالف دون عزو وأردفه بعبارات أكثر توضيحاً، حيث يعتبر أن العاقل صاحب الرأي السديد والفهم الصحيح لا يمكن أن ينكر الحق إذا جاءه عن طريق التمثيل، معتبراً أن الأمثال أو التشبيهات من أكثر ما ورد في لسان العرب على اختلاف

ألوانها وأنواعها، ثم ذكر بعض الشواهد والأدلة من كلام العرب يؤيد بها وجهة نظره (أبو حيان الأندلسي ج 1 ص 264) وحسبنا هنا الإشارة إلى رأيه دون ذكر العبارة.

وأما الإمام البقاعي في كتابه نظم الدرر قد عبر بعبارة أوضح وأصرح في هذا السياق معتبرا أن الأمثال أو التشبيهات من أقوى الوسائل في توضيح الأفكار وتقريرها في النفوس، وهل مهمة الحجاج إلا هذا؟

وهذا ما وضعه عند تفسيره لهذه الآية بقوله: «فلما علم ذلك كله وكانت الأمثال ألصق بالبال وأكشف للأحوال مثل حالهم في هداهم الذي باعوه بالضلالة بالأمر المحسوسة، لأن للتمثيل بها شأنًا عظيمًا في إيصال المعاني حتى إلى الأذهان الجامدة وتقريرها فيها». (برهان الدين البقاعي، ج 1 ص 47)

فالتشبيه أو ما يطلق عليه بالأمثال هو وسيلة عظيمة من وسائل إيصال المعاني وتقريرها في النفس، لما لها من دور مهم جدا في تبين الفكرة وتوضيحها للقارئ أو السامع، وذلك أن الشخص قد يكون منكرا للشيء أو مترددا فيه فإذا ضربت له المثل عليه، وقربت له الصورة بمثله أو قريب منه اقتنع به.

وقد ذكر صديق حسن خان عبارة مشابهة لعبارة ابن بدران، أو قل إن شئت هي نفسها غير أنه زاد عليها معنى لطيفا حسنا، مبينا أهمية التشبيه في توضيح المعاني والأفكار، وذلك لأن المثل تشبيه شيء خفي لا تدركه النفوس بسهولة عادة بشيء جلي واضح قد ألفتها النفوس، وهنا يتأكد الوقوف على ماهيته وحقيقته، «وذلك هو النهاية في الإيضاح» (محمد صديق خان، الطبعة الأولى ج 1 ص 97)

نلاحظ من خلال هذه العبارة اعتباره التشبيه في أعلى مراتب الإيضاح بل جعلها نهاية هذه المراتب، لما له من دور في تقريب الصورة وتوضيحها. وهذا ما يجعله وسيلة من وسائل الحجاج والاقناع.

وإلى مثل هذا المعنى ذهب الإمام القاسمي في محاسن التأويل حيث قال: ولما جاء بحقيقة صفتهم، عقّبها بضرب المثل- زيادة في الكشف، وتتميمًا للبيان. (القاسمي، ج 1 ص 256)

ثانيا :

قوله تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) البقرة 74

يتوجه الله عز وجل بالخطاب إلى بني إسرائيل موبخا ومقرعا على ما حصل منهم من تخاذل وتوانٍ عن الاستجابة لأمر الله عز وجل بذبح البقرة، وذلك بعد ارتكابهم لجريمة قتل، وما أعقب هذا كله من قسوة في القلب عقابا من الله عز وجل، وقد شبه الله عز وجل هذه القسوة بالحجارة إمعانا في الدم ومبالغة في الاستهجان، ولهذا الغرض شبه هذه القلوب بالحجارة التي لا تليها نار، وقد أسهب المفسرون في توضيح ما لهذا التشبيه من قوة في ترسيخ معنى شدة القسوة التي أصابت قلوبهم،

وتكاد تجتمع كلمة المفسرين في معنى هذه الآية وفي شرح التشبيه ههنا، لذلك لم نشأ أن نكثر من النقول في الكلام حول هذا التشبيه القرآني، واقتصرنا على ما يلي :

قال الواحدي في البسيط: «إنما شبه قلوبهم بالحجارة في الغلظة والشدة، ولم يقل: (كالحديد)، وإن كان الحديد أصلب من الحجارة، لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود بإذن الله حتى صار كالعجين، ولا تلين الحجارة بمعالجة أبداً، ولأن في الحديد منافع، تلك المنافع لا توجد في الحجارة، فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها ولعدم المنفعة منها». (الواحدي ج 3 ص 67)

فقد بين لنا الواحدي في هذه العبارة الغرض من التشبيه الوارد في هذه الآية مركزا على وجه الحجة والبرهان في هذا التشبيه والكامن في بيان شدة قسوة قلوبهم وعدم انتفاعها بالمواعظ وإن كانت معجزة كما في حادثة البقرة،

كما بين الفائدة من تشبيه هذه القلوب بالحجرون ما غيره من الأجرام القاسية، وذلك لأن الحديد قد يلين بالنار أما الحجارة فلا، فهذا هو موضع النكتة البلاغية في الآية الكريم، وهنا يتجلى حسن التشبيه وفائدته. ولم يذهب الطاهر بن عاشور في التحرير أبعد مما ذكره الواحدي، فقد كرر الكلام نفسه تقريباً، غير أنه اعتبر تشبيه القساوة بالحجر مما تمليه الفطرة وتذهب إليه النفس ابتداءً، ولذا فهي حجة فطرية بالنسبة إليه، حيث يقول: «وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأتباعها محسوسةً فلذلك شبه بها» (الطاهر بن عاشور ج 1 ص 562)

ثم يستطرد في تفسير هذا التشبيه مبيناً الوجه المنطقي والعقلي في تفضيل تلك القلوب على الحجارة في شدة القساوة، ويعلل ابن عاشور ذلك الحكم بقوله: «ووجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القساوة أنّ القساوة التي اتّصفت بها القلوب مع كونها نوعاً مغايراً لنوع قساوة الحجارة، قد اشتركا في جنس القساوة الرّاجعة إلى معنى عدم قبول التّحوّل كما تقدّم فهذه القلوب قساوتها عند التّمحيص أشدّ من قساوة الحجارة لأنّ الحجارة قد يعتريها التّحوّل عن صلابتها وشدّتها بالتّفريق والتّشقّق وهذه القلوب لم تُجدّ فيها محاولة». (الطاهر بن عاشور ص 563)

وهي تعليقات منطقية عقلانية كما يظهر، وقد لعب فيها التشبيه الدور الكامل في إيضاح هذه الفكرة وإقناع المتلقي بشدة قساوة قلوب هؤلاء القوم، بل بين لنا وجه كون هذه القلوب أشد قساوة من الحجر، وذلك أن الحجارة يمكن أن تتصدع أو تتشقّق، أما هذه القلوب فلم ينفع فيها وعظ ولا نصح.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 146) 146

في هذه الآية الكريمة شبه الله عز وجل معرفة اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بمعرفتهم لأبنائهم، وهو تشبيه معرفة بمعرفة، وقد كثرت أقوال المفسرين في هذه الآية لكنها كانت كلها تدور في محور واحد، وهو تبكيت أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم في عدم إيمانهم بنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الأقوال ما ذكره الواحدي في التفسير الوسيط من أن اليهود يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم لأنه مذكور عندهم في التوراة بصفاته وعلامات نبوته، ثم بين الغرض من تشبيه معرفتهم للنبي صلى الله عليه وسلم بمعرفة الأبناء، حيث يقول: «وذكر الأبناء لأنهم ألصق بأبائهم، فهم وأباؤهم أكثر خبرة ودراية بهم، واستيثاقاً من نسبهم بحكم الفطرة، فالآية تقرر: أن أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - يعرفون أن محمداً رسول الله، معرفة حقيقية، كمعرفة الآباء بالأبناء.» (الواحدي ج 1 ص 221_222)

وعلى هذا المعنى درج جمع من المفسرين مثل الزمخشري والرازي، وإليك بعض أقوالهم التي نستأنس بها في الوصول إلى المعنى المراد وفهم الحجة الدامغة التي واجه بها الله عز وجل أهل الكتاب، وهو خطاب نفسي إنما يخاطبه بالحجة التي لا مناص منها.

قال الزمخشري: «(يعرفونه) يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص كما يعرفون أبناءهم لا يشبهه عليهم أبناءهم وأبنائهم غيرهم» (الزمخشري ج 1 ص 204)

أي أن اليهود كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بأوصافه كمعرفتهم لأبنائهم ومتيقنين من نبوته كتيقنهم من التفريق بين أبنائهم وأبنائهم غيرهم، وهذا الكلام في غاية الاقناع ونهاية الاحتجاج، إذ لا يمكن لهم إنكار معرفتهم لأبنائهم أو اشتباههم عليهم، ولذلك لا يمكنهم إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو الادعاء أنهم اشتبهت عليهم أوصافه، فهذا مثل هذا، وإنكار أحدهما مستوجب لإنكار الآخر لأن الدليلين متطابقان.

وأما الرازي فقد استفاد من التشبيه الوارد في الآية الكريمة طريقة برهانية ملزمة للخصم المنكر لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن العلم بنبوته أظهر من العلم بنسبة الأبناء لأبائهم، وذلك أن نبوته صلى الله عليه وسلم مؤيدة بالمعجزات التي تفيد البرهان اليقيني، أما نسبة الأبناء للأباء فهي غير يقينية من جهة كونها غير قائمة على برهان يقيني، بل هي قائمة على شهادة الأم بذلك، والشهادة تحتل الصدق والكذب، وفي هذا يقول: «فعلى هذا الوجه الذي قررتموه كان العلم بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) علماً برهانياً غير محتمل للغلط أما العلم بأن هذا ابني فذلك ليس علماً يقينياً بل ظن ومحتمل للغلط فلم يشبهه اليقين بالظن؟

والجواب ليس المراد أن العلم بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) يشبه العلم بنبوة الأبناء بل المراد به تشبيه العلم بأشخاص الأبناء وذواتهم فكما أن الأب يعرف شخص ابنه معرفة لا يشتبه هو عنده بغيره فكذا ههنا وعند هذا يستقيم التشبيه لأن هذا العلم ضروري وذلك نظري وتشبيه النظري بالضروري يفيد المبالغة وحسن الاستعارة». (الرازي ج 4 ص 117)

ومما نلاحظه من كلام الرازي أنه تفتن لأمر مهم جداً، لم أجد فيما اطلعت عليه من ذكره من المفسرين، وهو قوله بأن التشبيه هنا لم يكن المراد منه إثبات معرفتهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم كمعرفتهم لنبوة آبائهم، بل المراد تشبيه معرفتهم لأشخاص آبائهم الذين تربوا تحت أيديهم وفي أكنافهم حتى أصبح أحدهم لا يشتبه عليه ابنه بآبائه غيره، فكذلك معرفتهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك وصف الأول بالضروري والثاني بالنظري وفي تشبيه النظري بالضروري مبالغة.

وعلى كلا القولين فإن التشبيه هنا فيه دلالة واضحة وبرهان قاطع وتبكيك لمنكر النبوة.

وإذا نظرنا في كلام الألوسي في روح البيان وجدناه يربط بين معرفة الآباء لأبنائهم بمعرفة اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بأوصافه الواردة في كتبهم حيث يقول: «أي يعرفونه صلى الله عليه وسلم بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم لا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكون الذكور أشهر وأعرف عندهم منهم وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق» (الألوسي، ج 1 ص 252)

ومثل هذا ما ذكره الطاهر بن عاشور مؤيداً فكرة أن معرفة الآباء للأبناء مما لا يقبل الشك وفي هذا يقول: «تشبيه في جلاء المعرفة وتحققها فإن معرفة المرء بعلائقه معرفة لا تقبل اللبس». (الطاهر بن عاشور، ج 2 ص 40)

رابعاً: قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة 261)

في هذه الآية الكريمة يشبه ربنا تبارك وتعالى المنفقين في سبيله بحبة من الزرع أنبتت سبع سنابل وكل سنبل أنبتت مئة حبة والحاصل من ذلك سبعمئة حبة، فهو تحبيب وحث وإغراء للإنفاق في سبيل الله، ولتحقيق ذلك استعمل التشبيه حتى يكون الكلام أكثر إقناعاً، ولعل هذا التشبيه مستل من واقع كان العربي يتوق إليه في صحراء مجدبة لا تنبت إلا قليلاً، فهاجس الفاقة والجوع عند العرب كان يؤرقهم كثيراً، وبالمقابل كانوا يحلمون دائماً بتلك المحاصيل التي تحقق لهم أمناً غذائياً، ولذلك اختار الله عز وجل هذا المثل ليكون أوقع في النفوس وأشد تأثيراً، غير أننا لم نجد من المفسرين من أشار إلى هذا صراحة ولكن حاموا حواله أو قريباً منه.

يقول الزمخشري: «أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقاً يتشعب منها

سبع شعب، لكل واحدة سنبله وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر» (الزمخشري ج 1 ص 310)

أما الفخر الرازي فكان أكثر وضوحاً في هذه القضية حيث بين أن الإنسان إذا علم مضاعفة الأجر بهذا الضعف الكبير الذي يبلغ سبعمائة ضعف لم يكن ليتركه أو يقصر فيه.

قال الرازي: «...أن المقصود من الآية أنه لو علم إنسان يطلب الزيادة والريح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك ولا التقصير فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر في الآخرة عند الله ألا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة عشرة ومائة وسبعمائة وإذا كان هذا المعنى معقولاً سواء وجد في الدنيا سنبله بهذه الصفة أو لم يوجد كان المعنى حاصلًا مستقيماً» (الرازي ج 7 ص 39)

أما أبو حيان فبعد أن ذكر فضل الإنفاق في سبيل الله وكثرة مضاعفة الأجر، تنبه لأمر دقيق وسر لطيف في هذه الآية، وهو أن التمثيل بالحبة فيه إظهار لقدرة الله وعظمته في البعث والإحياء، والقادر على هذا لا يعجزه إحياء الموت وبعثهم، حيث يقول: «وفي تمثيل النفقة بالحبة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث، وعظيم القدرة، إذ حبة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبة، فمن كان قادراً على مثل هذا الأمر العجيب، فهو قادر على إحياء الموت، وجماع ما اشتركا فيه من التغذية والنمو». (أبو حيان الأندلسي ج 2 ص 315)

وقد بين الطاهر بن عاشور ما تضمنته الآية من تحريض وحث على الصدقة، وإقناع المنفق بعظيم الجزاء وجزيل الثواب، مبينا دور التشبيه في هذا المعنى حيث يقول: «عود إلى التحريض على الإنفاق في سبيل الله، فهذا المثل راجع إلى قوله: وهو استئناف بياني لأن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (254) البقرة 254.

يثير في نفوس السامعين الاستشراق لما يلقاه المنفق في سبيل الله يومئذ بعد أن أعقب بدلائل ومواعظ وعبر وقد تهيأت نفوس السامعين إلى التمحّض لهذا المقصود فأطيل الكلام فيه إطالة تناسب أهميته». (الطاهر بن عاشور ج 3 ص 41)

خامساً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (264) البقرة 264.

بعد أن بين الله عز وجل ثواب المنفق في سبيله الذي يبتغي مرضاته تبارك وتعالى انتقل للحديث عن صنف آخر من المنفقين وهم الذين ينفقون رياء وسمعة أو نفاقاً، فأراد الله عز وجل التنفير من هذا السلوك وبيان عدم انتفاع صاحبه به يوم القيامة، فضرب لذلك مثلاً بالتراب الذي يكون على ظهر صخرة ملساء يحسبه الزارع تراباً ثراً وأرضاً خصبة يقصدها للبذر والزرع ابتغاء التحصيل والريح، ولكنه لا يعلم حقيقتها وأنها لا تنبت شيئاً، وتظهر حقيقتها إذا نزل عليها المطر وجرف ذلك التراب ليبقى الحجر الأملس عارياً، فكذلك النفقة التي ينفقها صاحبها طلباً للرياء السمعة، لا يكون لها مقابل يوم القيامة، ويكون صاحبها مجرداً من الأجر والثواب، لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فمثل هذا بذاك تنفيراً للإنسان من الرياء والسمعة والنفاق، لأنهم عادة ما يقرنون هذا بالمن على الفقير، كما نص على هذا بعض المفسرين، وفي هذا الصدد يقول الثعلبي في الكشف والبيان: «إن الناس يرون في الظاهر إن لهؤلاء أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل لأنه لم يكن لله عز وجل كأنه لم يكن كما أذهب الواابل ما كان على الصفوان من التراب، فتركه صلدًا أجرد لا شيء عليه لا

يقدرّون على شيءٍ على ثواب شيءٍ ممّا كسبوا عملوا في الدنيا لأنّهم لم يعملوه لله تعالى وطلب ما عنده وإنّما عملوه رياء الناس وطلب حمدهم فصار ذلك معظم من أعمالهم» (الثعلبي، ج 2 ص 261)

أما الزمخشري في الكشف فقد ركز على جانب المبالغة في تنفير المؤمنين من الانفاق رياء وسمعة مبينا أن هذا من صنيع المنافقين حيث يقول: «ثم بالغ في ذلك بما أتبعه كالذي ينفق ماله أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رياء الناس لا يريد بإنفاقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة فمثله كمثّل صفوان مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب» (الزمخشري ج 1 ص 312)

ومن العلماء الذين ركزوا على الدور الحجاجي الذي أذاه التشبيه هنا الفخر الرازي، مبينا وجه الشبه بين المانّ الذي يؤدي من يتصدق عليه ثم لا يثبت عمله ولا تكون له قيمة عند الله عز وجل بالتراب الذي يكون على الصخر الأملس فلا يثبت إذا نزل عليه وابل المطر، ويبيّن أن في هذا التشبيه تنفيرا للناس من المنّ والأذى في الصدقة . (الرازي ج 7 ص 47)

وفي السياق نفسه نجد أبا حيان الأندلسي يؤكد ما أجمع عليه المفسرون قبله، حيث يقول: «ضرب الله لهذا المنافق المرائي، أو الكافر المباهي، المثل بصفوان عليه تراب، يظنه الظان أرضاً منبثة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب، فيبقى صليداً منكشفاً، وأخلف ما ظنه الظان، كذلك هذا المنافق يرى الناس أن له أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وبطلت، كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب» (أبو حيان الأندلسي ج 2 ص 321)

وإذا جئنا إلى العصر الحديث مع ابن عاشور في التحرير والتنوير فإننا نجده يركز على ما يتبادر إلى ذهن المرائي في النفقة من جزيل الثواب عند الله عز وجل، وبين وجه الشبه بينه وبين الصفوان الذي يظنه الناس تربة صالحة للزراعة فإذا بها تنجرف بالماء الذي تصيبه الأمطار، مركزاً على وجود إيجاز بالحذف في هذه العبارة يقدر بحال الزارع الذين يأملون في انتاج الزرع من الصفوان، ووجه الشبه بين الصورتين هو الخيبة، وفي هذا يقول: «فخاب أمل زارعه»

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)﴾ البقرة 265

لا يزال ربنا تبارك وتعالى في هذه الآيات يحبب إلينا الإنفاق في سبيله ويحثنا عليه، ويغرينا بالجزاء العظيم والثواب الجزيل، ويضرب لنا المثل تلو الآخر، وهي حجج وأدلة ضربها الله عز وجل حتى نقتنع ونسارع إلى فعل الخيرات، ومن الجدير بالملاحظة أن الله عز وجل ضرب هذه المثلّ والتشبيهات كلها من مجال الزراعة والأرض، ولا عجب في ذلك فالعرب كانوا يعيشون في الصحراء العربية القاحلة التي لا نبات فيها ولا زرع إلا قليلاً، كانوا دائماً يتشوقون إلى العيش في البساتين والجنان، ويحلمون بالزروع والأشجار والثمار الكثيرة الطيبة، ولذلك عاد الله عز وجل في هذه الآية إلى الترغيب في الصدقة في سبيله، وابتغاء مرضاته، مركزاً على أهمية الإخلاص، لأنه هو السبيل الأمثل لمضاعفة الحسنات وزيادة الأجر والثواب ولو كان المنفق قليلاً، قد يحتقره صاحبه، لكن الله عز وجل يبارك فيه ويضاعفه وينميه، ولتحقيق هذه الغاية والوصول إلى هذا الهدف فقد استعمل القرآن الكريم هذا التشبيه، حيث شبه المنفق في سبيله كجنة وهي البستان في مكان مرتفع من الأرض بها أشجار وزروع قد نزل عليها مطر غزير فأثمرت وضاعفت منتوجها، أما إذا نزل عليها مطر خفيف أنتجت ما تنتجه مثيلاتها، فهي في كل أحوالها منتجة، ومحصولها كثير وطيب، وقد اتفقت كلمة المفسرين على هذا المعنى ولم نجد من زاد عليه شيئاً كبيراً من المتقدمين

وقد توسع المفسرون في شرح هذه الآية الكريمة واستخراج من حوته من كنوز بلاغية، خاصة في تركيزهم على التشبيه الوارد فيها، وحرصهم على انتزاع أغراضه البلاغية، وممن أسهب في ذلك الألوسي في روح المعاني، حيث بين أن الغرض منه حث المؤمنين على الانفاق في سبيل الله ولا يستقل الإنسان منها شيئاً فإن الله يضاعفها بحسب ما يقارنها من إخلاص وصدق، ولذلك شبهها الله عز وجل بالبستان الذي يقع في مرتفع من الأرض ثم أصابه مطر غزير فقد اجتمع لها سببان من أسباب النماء والزكاء، والجامع بينهما أن كلا منهما يحصل فيه الزيادة والنمو المقرون بالزكاء على الوجه الأتم، ولذلك اعتبره من التشبيه المركب العقلي، ثم ذكر فيه وجهاً آخر حيث قال: «ولك أن تعتبر تشبيه حال أولئك عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقتهم القليلة والكثيرة بالوابل والطل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل تلك الجنة فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عند ربهم جل شأنه» (الألوسي ج 2 ص 36)

وقد وقف القاسمي في محاسن التأويل عند هذا التشبيه وحاول التفصيل فيه من الناحية البيانية، مركزاً على المغزى المتمثل في الزيادة الحاصلة للصدقات التي يصاحبها الإخلاص وإن كانت قليلة، والمشبّه بالجنة التي تؤتي أكلها في حالتي المطر الكثير والقليل، أي أن نفقتهم، كثرت أو قلت، زاكية زائدة في حسن حالهم. كما أن الجنة يضعف أكلها قوي المطر وضعفها. وقد اعتبره أيضاً من التشبيه المركب. (القاسمي ج 2 ص 205)

أما الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير فقد قام بعمل مقارنة بين التشبيه في هذه الآية والتشبيه الوارد في آية حبة الزرع وبين أن الغرض هو تقريب صورة مضاعفة الثواب، أما في هذه الآية فقد مثل المنفق في سبيل الله المخلص في نفقته بما يكون أدعى للإخلاص وأعجب في حسن التخيل، ثم نبه على أهمية التشبيه في توجيه النفوس وتهذيبها وإرشادها إلى ضرورة الإخلاص، حيث يقول: «فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيباً وضمت الهيئة المشبه بها أحوالاً حسنة تكسبها حسناً ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه» (الطاهر بن عاشور ج 3 ص 50)

ثم أكد هذا المعنى بقوله: «وهو تمثيلٌ يجوز أن يكون لكبح النفس عن التشكك والتردد، أي أنهم يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر ولا يتركون مجالاً لخواطر الشح» (الطاهر بن عاشور ج 3 ص 51) ووجه الحجاج في هذا التشبيه كامن في حث النفوس على الانفاق ودفعها إليه مع مراعاة الإخلاص والصدق في ابتغاء وجه الله عز وجل، وتحبيب كل هذا إلى النفس بتمثيله بما كانت تشتهي نفوس العرب وتتمناه من الجنان والبساتين المثمرة.

الأهداف الحجاجية للتشبيه في القرآن الكريم:

عند تأملنا للقرآن الكريم، ومن خلال الأمثلة التي تم استعراضها وبالأستعانة بكلام أهل التفسير، نجد أن التشبيه المستعمل في القرآن الكريم كانت له أبعاد حجاجية، وأغراض إقناعية، وقد جاء هذا الحجاج لأغراض ثلاثة:

1- تحبيب المؤمنين في الجنة ونعيمها والحث على العمل الصالح الذي يقرب إليها

2- ذم الكافرين ورد شبههم، والنفير من صنيعهم وما يؤدي إليه من عذاب شديد يوم القيامة.

3- مواجهة أهل الكتاب وتفنيد مزاعمهم، ورد شبهاتهم ومغالطاتهم، ومواجهتهم بالحقائق التي يقرون بها.

وكلها في الحقيقة مجالات حجاجية كبرى، تعد من المواضيع الرئيسة في القرآن الكريم، استعمل فيها التشبيه كآلية أساسية، وبما أن هذا البحث لا يحتمل التفصيل الطويل فقد اقتصرنا على ذكر بعض النماذج استئناساً فقط واكتفينا ببعض ما ورد في سورة البقرة على سبيل الإيضاح (فحسب)

6. خاتمة

ما يمكن استخلاصه من هذا البحث القصير، ومن خلال النظرة التراثية التي تم عرضها أن للتشبيه أبعادا حجاجية مهمة تفتن لها علماء التفسير والبلاغة منذ القديم، وقد تم التركيز عليها بشكل لافت للانتباه، ومن خلال هذا الذي عرضناه وما كتبه غيرنا في هذا المجال من أعمال الباحثين والأساتذة يمكننا القول: إن الحجاج متجذر في الخطاب اللغوي عامة، وفي الخطاب القرآني خاصة، ولا يخلو خطاب من مقصدية الإقناع والتأثير، ولئن كان كلام البشر يهدف إلى الإقناع بوجهة نظر سياسية أو اقتصادية أو حتى فلسفية، فإن القرآن الكريم استعمل كل الأساليب بما في ذلك الأساليب البيانية ذات الظاهر الجمالي من أجل إقناع البشر بفحوى الرسالة الربانية التي فيها صلاح البشر في الدنيا والآخرة، وهذا يؤكد ما يذهب إليه بعض اللسانيين المعاصرين وعلماء تحليل الخطاب من أن الكلام بكل أشكاله حتى ولو كانت له صورة جمالية يبقى الغرض الأساسي منه الإقناع والبرهنة والحجاج، وبذلك نزيد نظرية الحجاج إثراء.

7. قائمة المراجع:

1. ابن بدران، عبد القادر بن أحمد. (د.ت). *جواهر الأفكار* (ت. زهير الشاويش). (ط. 1). بيروت: المكتب الإسلامي.
2. ابن نايقا البغدادي، عبد الله بن محمد. 1968. *(الجمان في تشبيهات القرآن)*. بغداد: دار الجمهورية (وزارة الثقافة والإرشاد العراقية).
3. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. 2009. *(التفسير البسيط)* (ت. مجموعة من الباحثين). (ط. 1). الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
4. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. 1994. *(الوسيط في تفسير القرآن المجيد)* (ت. عادل عبد الموجود وآخرون). (ط. 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
5. البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر. 1995. *(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)* (ت. عبد الرزاق غالب المهدي). بيروت: دار الكتب العلمية.
6. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. 1987. *(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)*. (ط. 3). بيروت: دار الكتاب العربي.
7. الأندلسي، أبو حيان. (د.ت). *البحر المحيط* (ت. عادل عبد الموجود وعلي معوض). (ط. 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
8. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. 1957. *(البرهان في علوم القرآن)* (ت. محمد أبو الفضل إبراهيم). (ط. 1). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
9. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر. 1997. *(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)* (ت. محمد عبد الرحمن المرعشلي). (ط. 1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
10. الثعلبي، أحمد بن محمد. 2002. *(الكشف والبيان عن تفسير القرآن)* (ت. أبو محمد بن عاشور، مراجعة نظير الساعدي). (ط. 1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
11. القرطاجي، حازم. (د.ت). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء* (ت. محمد الحبيب بن الخوجة). تونس: دار الغرب الإسلامي.
12. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. 2000. *(مفاتيح الغيب (التفسير الكبير))*. (ط. 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
13. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. 1974. *(الإتقان في علوم القرآن)* (ت. محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
14. ابن عاشور، محمد الطاهر. 1984. *(التحرير والتنوير)*. تونس: الدار التونسية للنشر.
15. الدسوقي، محمد بن عرفة. (د.ت). *حاشية الدسوقي على مختصر المعاني للسعد التفتازاني* (ت. عبد الحميد هندواوي). بيروت: المكتبة العصرية.
16. القاسمي، محمد جمال الدين. 1997. *(محاسن التأويل)* (ت. محمد باسل عيون السود). (ط. 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
17. خان، محمد صديق. (د.ت). *فتح البيان في مقاصد القرآن*. (ط. 1). بيروت: المكتبة العصرية.
18. صولة، عبد الله. 2007. *(الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية)*. (ط. 2). بيروت: دار الفارابي.
19. بعداش، علي. (2017). الأبعاد الحجاجية للتشبيه في الحديث النبوي الشريف. *مجلة العلوم الاجتماعية*، (24).